

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝﴾

من دلائل كون محمد العربي - صلى الله عليه وسلم - رسول الله : هذا القرآن الحكيم الذي عرضه مقرأً أنه أوحى إليه من عند الله ، وأما كَوْن القرآن "حكيمًا" فمعناه : إنه داعٍ إلى الصراط المستقيم ، أي يهدي إلى الطريق الذي هو أقوم الطرق وأصوبها ؛ إذ ليس في محتوياته شيء يتعارض مع العقل والفطرة ، فبالرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول القرآن ، إلا أن أحداً من الناس لم يستطع حتى الآن إبطال شيء مما جاء بحجة أنه منافي للعقل أو الفطرة ، وإن هذه الميزة الفريدة هي أكبر دليل على كونه كتاباً منزلاً من عند الله العزيز الحكيم .

والمقصود من القوم في قوله : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ بنو إسماعيل ، وإن كل نبيٍّ إنما يأتي لإنذار قومه في المقام الأول ، وكذلك كان المخاطبون الأولون لنبي الإسلام بدوره هم أفراد قومه هو ، ولكن بما أن النبوة قد انتهت بعده - عليه الصلاة والسلام - لذلك فما زالت نبوته باقية مستمرة إلى يوم القيامة ، وإنما الفارق هو أنه - عليه الصلاة والسلام - أعذر في حياته إلى بني إسماعيل وأقام عليهم الحجة بصفة مباشرة ، بينما تضطلع أمته بعد وفاته ، نيابة عنه ، بواجب الدعوة والتبليغ والإعذار إلى مختلف شعوب العالم !

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا

فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١٢﴾

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ : والله لقد ثبت ووجب العقاب .

أَغْلَالًا : قيوداً تشد أيديهم إلى أعناقهم .

فَهُمْ مُقْمَحُونَ : رافعوا الرؤوس غاضوا الأبصار
سَدًا : حاجزاً ومانعاً .

فَأَغْشَيْنَاهُمْ : فألبسنا أبصارهم غشاوة .

لئن امتلأ عنق المرء أغلالاً وقيوداً؛ فإن رأسه سيبقى مرفوعاً متجهاً إلى فوق ، بحيث لا يمكنه أن يبصر موضع قدميه . وهذا تمثيل لأولئك المغرورين الذين قد استغرقوا في كبرياء أنفسهم ، لدرجة أنهم لا يكادون يرون أية حقيقة خارج ذواتهم ، وأمثال هؤلاء لا يوفقون للاعتراف بالحق أبداً !

وإن أهم شيء فيما يتعلق بالاهتداء إلى الحق ، هو أن يتوافر في داخل المرء مادة الاعتراف، وأن يكون هو على حذر دائم من لحظة المشول بين يدي رب العالمين، وألا ترضى نفسه الطموح بشيء أقل من الصدق الكلي الشامل، فأمثال هذا هم الذين يندفعون سراعاً وراء الحق إذا تجلّى ، وبالتالي يستحقون عند الله الجزاء الأوفى ، والإنعام الأكبر !!

﴿ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ

مُبِينٍ ﴿١٣﴾

وَأَنذَرُهمْ : ما سنّوه من حسنٍ أو سيئ .

أَحْصَيْنَاهُ : أثبتناه وحفظناه .

إمام مُبِين : أصل بين ، (اللوح المحفوظ)

لقد أثبتت الكشف العلمية الحديثة أن كل صوت يخرج من فمه يبقى كما هو في "الأثير" في حالة نقوشٍ ، وهكذا كل ما يمارسه الإنسان من عملٍ تنعكس صورته أيضاً بشكل الموجات الحرارية على شاشة الكون وتحفظ إلى الأبد ، وهذا يعني أن حياة كل منا تُصور تصويراً دقيقاً كاملاً كسرائط التسجيل التلفزيونية . وهذه التجربة تدلنا على أنه من الممكن في هذا العالم أن تسجل جميع أعمال الإنسان وأقواله بدقة تامة ، من حيث لا يدري ولا يسعه الخيلة دونها أو الهرب منها ، ثم يُعاد عرضها عليه في أية لحظة !

﴿ وَأَضْرَبْ لَهُمْ مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠١﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٠٢﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٠٣﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا عَلَيْنَا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ نَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾ قَالُوا طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

الْقَرْيَةِ : أنطاكية .

فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ : فقويناها وشددناها به .

تَطَيَّرْنَا بِكُمْ : تشاء منا بكم .

طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ : شؤمكم كفركم المصاحب لكم .

أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ : أين وعظمت تطيرتم .

لعل المراد بالقرية هنا بلاد مصر ، حيث بُعث لإنذار أهلها برسولين اثنين (موسى وهارون) في زمان واحد ، ولكنهم قابلوها بالجحود والإنكار، ثم نهض من بني جلدتهم رجل ثالث أيد الرسولين بحماسٍ و يقينٍ ، وربما يكون المراد بهذا الرجل الثالث هو الرجل المؤمن الذي ذكره القرآن في سورة المؤمن بالتفصيل .

وإن أشد الأشياء مرارةً بالنسبة إلى الإنسان ، مازال يتمثل ، على اختلاف العصور ، في النصيحة تسدى إليه وهي لا تتفق ومزاجه؛ إذ لا يلبث المرء أن يثور ويمتعض فور سماعه إياها ، وتكون النتيجة أنه لا يكاد يتأمل فيها بذهنٍ هادئٍ معتدلٍ ، وبدل أن يجتبرها من حيث الدليل والبرهان ، يلجأ إلى ترديد أقاويل غير ذات الصلة ضدها ، تحت دواعي العناد والكراهية ، وإن اختبار أمرٍ ما والحكم عليه في ضوء الدليل هو لزوم الحد والوقوف عنده . وأما معارضته العمياء بدون دليل ولا برهان فهو تعدٍ ومجاوزة لحدود العقل والشرع!

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾

يَسْعَى : يسرع في مشيه لنصح قومه .

جاء الرجل الثالث - مع ذلك - ووقف إلى جانب الرسولين ، إذ لا بد للمرء ، وهو يشهد معركة الحق والباطل ، من مناصرة الحق لأنه حق ، حتى ولو كان ذلك مرادفاً لمناصرة الضعيف في مواجهة القوي!! وقد قال الرجل الثالث - فيما قال - لقومه : إن هؤلاء المرسلين لا يسألونكم أجراً على دعوتهم ، وهم - إلى جانب هذا - مهتدون.

ونعلم من هذا أن النزاهة أو الإخلاص وحده ليس بدليل كافٍ على كون المرء على الهدى ، بل يجب أن يُختبر كلامه ، بغض النظر عن كونه مخلصاً وحسن النية ، على محك الدليل ، ثم إنه لن يعدّ صواباً إلا إذا ثبت صوابه على محك الدليل !

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢﴾ إِنْى إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ إِنْى ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

فَطَرَنِي : خلقني وأبدعني .

لَا تُغْنِ عَنِّي : لا تدفع عني .

كان رجل الحق قد أيد المرسلين معرضاً حياته للخطر . وقد كان عمله هذا قيماً لدرجة أنه أدخل بعده إلى الجنة ، وعلى إثر دخوله في الجنة لا يتناول الرجل قومه الظالمين بالذم أو التشنيع ، وإنما يود لو أنهم قد علموا مصيره ، لما تصدوا لمعارضته الحق !!

تلك هي صورة المؤمن الصادق ؛ إذ لا يزال المؤمن ناصحاً للناس يتمنى لهم الخير على كل حال ، حتى ولو عامله الناس معاملة الجور والعدوان !

﴿ وَمَا أَنزَلْنَاهُ عَلَىٰ قَوْمِهِمْ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٧﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٨﴾ يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ ۖ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٩﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْفُرُوزِ أَهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٠﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

صَيْحَةً وَاحِدَةً : صوتاً مهلكاً من السماء .

خَامِدُونَ : ميتون كما يخمّد النار .

يَا حَسْرَةً : يا ويلاً . أو يا تندماً .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثيراً أهلكنا .

الْقُرُونِ : الأمم .

لَمَّا جَمِيعٌ : إلا مجموعون .

مُحْضَرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء .

إن الله - عز وجل - حين يحكم على أمة ما بالهلاك ، فيكفي لذلك أن يحرك الأسباب الأرضية ضدها ؛ ولا يستدعي الأمر أن يستعمل جميع القوى السماوية الجبارة .

لم استهزئ بالرسل على مدار التاريخ ؟ إن جواب ذلك يكمن في لفظ " الاستهزاء " نفسه ؛ فالمستهزئون إنما يستهزئون دوماً بإنسان يبدو لهم حقيراً . وهذا ما حدث مع الأنبياء والمرسلين ، حيث أبى معاصروهم أن يؤمنوا بهم لكونهم اعتبروا شخصياتهم أهون شأنًا من أن يتم إعلان الصدق الإلهي على ألسنتهم !!

﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَمَيَّةُ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾
 وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ . وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾
 وَفَجَّرْنَا فِيهَا : شققنا في الأرض .

خَلَقَ الْأَزْوَاجَ : الأصناف والأنواع .

إن وجود التربة الخصبة على سطح الأرض ، وتوفير الماء والحرارة والهواء بمقادير مناسبة لها ، وكون البذور الملقاة فيها تتمتع بصلاحية النمو الازدهار . وما إلى ذلك مما لا يحصى من عوامل وأسباب معلومة وغير معلومة كهذه ؛ تتحول آخر الأمر إلى الحبوب وأنواع الثمار والخضراوات لتكون غذاء الإنسان ، وإن هذا النظام قد وُجد بأكمله من غير أن يوجد الإنسان ، وإنما يتم إيجاده وتصريفه بفضل من الله ورحمته ليس غير ، ولو فكر الإنسان في ذلك ، لامتلاً كيانه كله شكراً وعرفاناً .

ثم إن هذا النظام يتضمن أيضاً آيةً على حقيقة عظمى ، حيث تدلنا الدراسات على أن كل شيء من أشياء هذا العالم يسري فيه مبدأ الزوجية ، فإذا كان نظام الكون قائماً على هذا المبدأ الذي يفرض على جميع الموجودات أن تكمل نفسها عبر الانضمام إلى أزواجها ، فلا بد أن يكون لعالمنا الراهن هو الآخر "زوج" يكمله ، وهكذا يثبت نظام الزوجية السائد في العالم الحالي إمكان وقوع الآخرة !

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ : نزع من مكانه الضوء .

قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ : قدرنا سيره في منازل ومسافات .

كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ : كعود عذق النخلة العتيق .

وَلَا اللَّيْلُ : ولا آية الليل (القمر) .

سَابِقُ النَّهَارِ : سابق آية النهار (الشمس) .

يَسْبَحُونَ : يسرون بانسباط .

لكل من الأرض والقمر والشمس مدار معين لا يتخطاه، والكل يتحرك في مداره بدقة فائقة، ويترتب على هذا الدوران ظواهر شتى، كتعاقب الليل والنهار على وجه الأرض بانتظام، وأداء القمر دور "تقويم فلكي" بما يعتره من زيادة ونقصان .. إلخ . ومع أن هذا النظام لا زال قائماً منذ آلاف القرون، إلا أنه لم يحدث في سيره أي خلل أو اضطراب ولو للحظة واحدة ! .

وهذه المشاهدة تعرفنا بقدرة الله اللانهائية، ولو أن المرء نظر فيها بعين الاعتبار لغمره شعور بعظمة الله الواحد القهار بحيث تنعدم بعدها كل آثار العظمة غير الإلهية من ذهنه تلقائياً !

﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٠﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿١٢﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٣﴾﴾

ذُرِّيَّتُهُمْ : أولادهم وضعفائهم

الْمَشْحُونِ : المملوء .

فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ : فلا مغيث لهم من الغرق .

إن أرضنا هذه يوجد بها مناطق البر جنباً إلى جنب مع البحار المترامية الأطراف، كما يحيط بنا من فوقنا فضاء رحيب هائل . ولقد أودع الله في هذا الكون إمكانات لا يعجز

معها المرء عن السفر في أي جزء شاء من هذه الأجزاء الثلاثة ، فهو يستطيع أن يسافر براً وبحراً وجواً على حد سواء .

وإنما يمكن القيام بكل هذه الأسفار تحت التدبير الإلهي ، وهي رحمة للإنسان عظيمة لدرجة أنه لو تأمل فيها ل طرح نفسه خاشعاً متضرعاً دليلاً بين يدي الله ، ولما سلك في طريق المعصية والطغيان أبداً !

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾

إن المرء تتبعه من ورائه أعماله ، وبين يديه يوم الحساب العسير ، وكأنما الحياة رحلة من دنيا العمل إلى دنيا الجزاء ، وهذا وضع خطير للغاية ، ولو شعر المرء بخطورته حق الشعور ، لارتعدت فرائضه وجللاً وإشفاقاً ، ولكن ما بال الإنسان ، فلا هو يأخذ نفسه بالتأمل والتفكير الجاد ، ولا تكاد آية ما تجعله يفتح عيونه ! وإنما هو يظل مشغولاً بتبرير أعماله وتصرفاته عن طريق التأويلات الكاذبة حتى يموت !

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا نُبُوْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٣﴾

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة الموت .

وَهُمْ يَخِصِّمُونَ : يختصمون في أمورهم غافلين .

وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ : نفخة البعث .

الْأَجْدَاثِ : القبور .

يَنْسِلُونَ : يسرعون في الخروج .

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة البعث .

مُخَضَّرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء .

إن الذين لا يوقنون بالآخرة يقفون منها موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث ، كما لو أنها شيء مستبعد جداً . أما الذين هم أشد افتقاراً إلى الجدية نسبياً بين هؤلاء ، قد تبلغ بهم الجراءة أحياناً إلى حد اتخاذ الآخرة موضوع السخرية والاستهزاء ، وسيبقى أمثال هؤلاء الناس غارقين في غفلتهم هذه ، إلى أن تقوم القيامة . وإن القيامة ستأخذهم بغتة لن يتمكنوا معها من اتخاذ أية إجراءات أو تدابير ضدها .. وقد جاء في الحديث ما معناه : أن إسرافيل مازال ينظر نحو العرش ، واضعاً الصور في فمه ، يرتقب متى يصدر إليه الأمر الإلهي حتى ينفخ فيه ! وإن النفخ في الصور شأنه شأن الجرس يدق إيذاناً بانتهاء مهلة الامتحان ، وبعدها سيعتري نظام هذا العالم تغير مفاجئ شامل ، حيث ستبدأ بعد ذلك مرحلة الجزاء ، بينما نحن الآن نمر بمرحلة العمل !

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤١) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٤٢﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴿٤٣﴾ هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٤٤﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٤٥﴾

شُغِلْ : نعيم عظيم يلهيهم عما سواه .

فَاَكْهُونَ : متلذذون . أو فرحون .

الْأَرَائِكِ : السرر في الحجال .

وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ : ما يتمنونه أو ما يطلبونه .

إن المرء لا تواجهه في العالم الراهن النتائج المعنوية لعمله . أما الآخرة فهي المكان الذي يلتقى فيه كل أحد من الناس نتائج عمله المعنوية، فالشخص الذي كان قد اقتصر سعيه ونشاطه في الأرض على إحراز المنافع الوقتية وحدها ، سيُبعث في عالم الآخرة الأبدي صفر اليدين تماماً . وعلى تقيض من ذلك فإن الذين كرسوا حياتهم الدنيوية في سبيل الهدف الأسمى، سيفرحون هناك بما ينتظرهم من راحةٍ ونعيمٍ لا يفنى . ذلك إلى جانب تكريم الله إياهم بعناياته الخاصة!!

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿١٠﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١١﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٤﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾﴾

وَأَمْتَرُوا : تميزوا وانفردوا عن المؤمنين .

أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ : أو صكم . أو أكلفكم .

جِبِلًّا : خلقا . أو جماعة عظيمة .

أَصَلَوْهَا : ادخلوها . أو قاسوا حرها .

الناس في الحياة الراهنة ، يتعاشون - بَرَّهم مع فاجرهم - في دنيا واحدة، أما في الحياة القادمة فسوف تُفصل دنيا كلا الفريقين عن دنيا الآخر، فضلاً تاماً ، بحيث يكون عِبَادُ الشيطان مع الشيطان ، وعِبَادُ الرحمن مع الرحمن. وإنه ليس ثمة أحد يعبد الشيطان باسم الشيطان. ولكن كل عابدٍ لغير الله هو في الحقيقة عابد للشيطان بصورة غير مباشرة ، لأنه إنما يفعل ذلك تحت تزيين الشيطان نفسه .

أثبتت الأبحاث والتجارب العلمية الجديدة أن جلد الإنسان شأنه شأن إسطوانة تسجيل حساسة ، ترسم عليه كل الأصوات الصادرة عن المرء ، وأنه يمكن إعادة هذه الأصوات كما هي في أي وقتٍ لاحقٍ . إنها آية تقرب إلى أفهامنا كيف أن جوارح الإنسان (يديه ورجليه) ستأخذ تحكي عليه في الآخرة أخباره وفصول حياته أولاً بأول!!

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ۚ ﴾ (١٦)
 ﴿ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۚ ﴾ (١٧) وَمَنْ
 نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۚ ﴾ (١٨)

لَطَمَسْنَا: لصيرناها ممسوحة لا يرى لها شق .

فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ: ابتدروا الطريق لتجتازوه .

فَأَنَّى يُبْصِرُونَ؟: فكيف يبصرون الطريق؟

عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ: في مكان معاصيهم .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ: نطل عمره .

نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ: نرده إلى أرذل العمر .

ظالما يغترّ الإنسان بما يتمتع به من نعمة العين واليدين والرجلين وغيرها من المواهب والقدرات الأخرى ، فيعدو طوره ويتمرد على الله فيتجاوز حدوده ، ويتهك محارمه ، على حين لو أنه فكر ملياً لكفاه هذا الواقع عظةً واعتباراً بأن مواهبه وقدراته تلك ليست من صنعه هو ، بل هي مما أعطاه الخالق إياه ، وإذا كان المعطي إلهاً آخر ، فبإمكانه أن يسترد عطائه تماماً كما أعطاه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن لمحة سريعة لهذا الإمكان لا تزال تعرض على الناس بالفعل في صورة الشيخوخة ؛ فالمرء حين يهرم ويبلغ نهاية الشيخوخة ، تنزع منه كل قدراته تلقائياً ، حتى إنه ليعود ثانياً من شدة الضعف والاحتياج كما كان أيام طفولته الأولى ، غير أن الإنسان غبي بليد الحس ، لدرجة أنه رغم مشاهدته كل هذه الأحوال صباح مساء لا يستخلص منها درساً ولا عبرة !

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۚ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ ﴾

لقد كان أسلوب القرآن المعجز يجذب إليه السامعين جذباً ، ومن ثم أخذ معارضوه يحاولون التقليل من تأثيره على الناس قائلين بأنه شعر وليس بكلام إلهي .

غير أن هذه دعوى لا تستند على أساس ، فما يسود القرآن من جوي مفعم بالجدية اللامحدودة ، وما يحمل بين طياته من أسمى التعاليم عن معرفة الحق ، ومن كشف لا مثيل له عن حقائق الغيب وأسرار الكون ، وما يوجد بين مضامينه - على اختلاف موضوعاتها - من نظم بديع ووحدة فكرية فذة ، وما يتخلل صحائفه من الإشراقات الربانية وانعكاسات ألوهية الله وجلاله لا توصف ، كل ذلك يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على أن القرآن كلام أعلى وأرفع من أن يصح وصفه بالشعر الإنساني .

بيد أن الحقيقة إنما يؤمن بها دوماً الأحياء وحدهم .. وهكذا فإن صدق القرآن هو الآخر لن يراه إلا من كان حياً ، وأما الإنسان الميت فلن يوفق لرؤيته أبداً !

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٥١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٥٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّفِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٥٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿٥٥﴾ فَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ : صيرناها لهم مسخرة منقادة لهم .

وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ : والأصنام جند معدون للكفار نحضرهم معهم في النار لعذابهم .

إن الحيوانات الداجنة بمثابة علامات حية تدلنا على أن صانع العالم المادي قد صنعه بحيث يستطيع الإنسان أن يقوم بتسخير موجوداته واستغلالها بشتى الوجوه ، وعلى أساس من صلاحية العالم المادي هذه يقوم بناء الحضارة الإنسانية بأكمله ، ولو كان الحصان والثور هما الآخران من وحشية الطبع والغريزة حيث تكون الدببة والذئاب ، أو كان الحديد والبتروول وراء مقدرة الإنسان تماماً ، كما هو شأن المواد البركانية الدفينة تحت الأرض ؛ إذن لاستحال رقي الحضارة الإنسانية وتطورها كل الاستحالة .

وإن الخالق الذي أسدى هذه النعم الجليلة ، كان ينبغي على الإنسان أن يشكر له وحده ، ويفرده بالعبادة من غير شريك ، ولكنه يتخذ من الآخرين دونه آلهة ، وإذا ذكر فلا يتذكر ، بل لا يكاد يلقى إلى التذكير والنصيحة بالآ ، وهذا بدون شك هو الطغيان الأكبر ، وليس بإمكان أحد يرتكبه أن ينقذ نفسه من مصيره المحتوم على أية حال !

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٣٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٣٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٤٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هُوَ خَصِيمٌ : مبالغ في الخصومة بالباطل .

وَهِيَ رَمِيمٌ : بالية أشد البلى .

بَلَى : هو قادر على خلق مثلهم .

مَلَكُوتٌ : هو الملك التام .

ليس الإنسان خالق نفسه ، وإنما هو مخلوق الخالق المبدع بلا جدال ، وهذا الواقع كان يقتضي أن يتصف الإنسان بصفة التواضع والخضوع ، ولكنه طالما ينحرف عن منهج الواقعية ، ويشير مناقشات تتنافى مع حيثيته المتواضعة العاجزة ..

إن خلق الإنسان والكون للمرة الأولى يكفي في حد ذاته للبرهنة على أن عملية الخلق هذه يمكن إعادتها مرة أخرى ، ولكن الإنسان يتعمى عن هذا البرهان الجلي الصارخ ويتساءل جدلاً كيف سيعود الميت حياً من جديد؟! ومع أن حادث تحول الإنسان الميت ثانية إلى إنسان حي يقع - ولا ريب - يوم القيامة ، غير أن هذا الإمكان يبدو لنا اليوم جلياً في الأشياء الأخرى ، فلننظر إلى الشجر مثلاً : إن الشجر يكون في ظاهر الأمر أخضر ، ولكنه حين يقطع ويحرق أخشاباً ، فيتخذ شكلاً مختلفاً عن حالته

الأولى كل الاختلاف : يُسمى النار!

إن تحول شيء إلى شيء آخر واقعة ثابتة لا تحتاج إلى مزيد برهانٍ ، وقد جعلها الله بالنسبة إلى بقية الأشياء ممكنة الحدوث والتكرار في عالمنا الراهن . وأما بالنسبة إلى الكائن البشري ، فإنه تعالى سيجعل ذلك ممكناً في يوم القيامة ، إلا أنه لن يكون لأجل الإرغام على الإيمان ، بل لمجازاة الإنسان على عناده وطغيانه !!